الأزمة الفكرية ونقلة الإيمان

كثيرون هم الحائرون في سر هذه الحياة، والغاية من نشأة الإنسان ومصيره، وحقيقة الوجود من حوله، وهم يلاحظون أن عمر الفرد محدود، وأنه صائر إلى نهايته لا محالة، وأن أيامه التي يقضيها على الأرض تمرّ مرّ السحاب، وأن حجمه ضئيل زهيد بالنسبة إلى الكون الهائل، ويتساءلون هل خلق الإنسان عبثاً؟ ويمضي خبط عشواء؟ وهل هناك حياة بعد الموت وجزاء؟ وهل هناك فناء أم بعث وبقاء؟

ولنأخذ أمثلة تصور لنا هذه الحيرة، وتوق الإنسان الواعي لمعرفة الحقيقة. يقول (ايرفنج وليام) أستاذ العلوم الطبيعية بجامعة ميتشجان: إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية في صغرها، والتي لايحصيها عدّ، وهي التي تتكون منها المواد جميعها، كما لاتستطيع العلوم أن تفسر لنا بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكي تكوّن الحياة.

ويقول (جيمس جينز) في كتابه (الكون الغامض): ونحن إذ نقف على أرضنا، تلك الحبيبة الرملية المتناهية في الصغر، نحاول أن نكشف عن طبيعة الكون الذي يحيط بموطننا في الفضاء والزمن، وعن الغرض من وجوده، نحس في أول الأمر بما يشبه الذعر والهلع، وكيف لا يكون الكون مخيفاً ومرعباً، وهذه أبعاده هائلة لاتستطيع عقولنا إدراك مداها؟

ويقول الكاتب الألماني (فالتر باوميرات): « إن كل ما يشغل بالي منذ بدايتي بالتأليف هو فكرة البحث عن معنى الحياة ومصيرها، ومعنى الوجود والخلود والفناء، فكل هذه الأمور ما تزال سراً ولغزاً لم أستطع حله... لقد درست الماركسية بعمق ودقة واسعة، ولكني لم أجد فيها الجواب عن السؤال الذي يلازم تفكيري دائماً، أي السؤال عن معنى الحياة.

فالماركسية مبدأ اجتماعي عالج طبيعة الحياة الاجتماعية استناداً على

عن جوهر الحياة أو مصير الإنسان، فعلينا أن نستمر بالبحث عن هذا المعنى وحقيقة هذا الوجود ».

لقد كان ماركس يحلم بتحوّل الناس الحتمي للشيوعية بعد مرحلة الرأسمالية، وإذ بها تسقط اليوم وتتهشم، وتنهزم على أرض الواقع، وأمام أصالة الفطرة بعد صحوة العقل، ويقظة النفس، وانحسار (الرُهاب)، ودبيب الروح في القطع الآدمية، وتقضي نحبها في عقر دارها، وينتهي ما كان يسمّى سابقاً (الاتحاد السوفييتي وأوربا الشرقية)[1]

فالفطرة مهما تراكم عليها من طين، ومهما حملت من أثقال، ومهما احتملت من حيف، ومهما أُشْرِبت من زيغ، لابد لها أن تستيقظ من سباتها، ولابد أن تسري في الإنسان شحنة الكرامة والعزة، فيتحرك ولو بعد أجيال، لينفض عن كاهله التراب، ويدافع عن كرامته وحقه في الحياة، ويتأمل في خلق السموات والأرض، ويتطلع إلى بزوغ فجر جديد، يبدد الظلام ويزهق الباطل ويعلي الحق.

وعندما صعد (جاجارين) رائد الفضاء الروسي إلى الفضاء، وتأمل في هذا الخلق، بهرته عظمة الخالق وخلبت لبه روعة الكون، فقال بعد هبوطه: « عندما صعدت إلى الفضاء أخذتني روعة الكون فمضيت أبحث عن الله».

هذه الدوامة المفزعة، والدائرة المعيبة، والخواء المضني، والعطش الشديد لمعرفة من أين ولماذا جاء الإنسان؟ وماذا يجري حوله؟ وما مصيره؟، تمثلها مرارة الشاعر (عمر الخيام) الذي يعلو صوته بالنحيب:

لبست ثوب العمر لم أُسْتَشَرْ وحِرْتُ فيه بين شتَّى الفِكَرْ!
وسوف أنضو الثوبَ عنّي ولم أدرِ لماذا جِئْتُ !أين المفر؟

وهذا هو (إيليا أبو ماضي) من شعراء الجاهلية المعاصرة، يفصح عن خبايا صراعه وعراكه النفسي، ويعبّر عما يشهد في نفسه ونفوس أمثاله من خواء وتخبط وحيرة فيقول في « طلاسمه »:

---

(١) اليهود يتقنون استغلال الأحداث وتسخيرها لمصلحتهم، فكما نفذوا إلى الرأسمالية، وسخروا الشيوعية لمآربهم، استغلوا سقوطها أيضاً.

جئت لا أعلم من أينَ، ولكنّي أتيتُ
ولقد أبصرت قدامي طريقاً، فمشَيْتُ
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيتُ
كيف جئتُ ؟ كيف أبصرتُ طريقي ؟
لســـــت أدري !

☆ ☆ ☆

أوراء القبر بعد الموت بعثٌ ونشـورُ ؟
فحيـاةٌ فخـلود أم فنـــــاء فدثـــــورُ
أكلام الناس صدق أم كلام الناس زورُ
أصحيـح أن بعـض النـــاس يـدري؟
لســـــت أدري!

☆ ☆ ☆

إنني أشـهد في نفسـي صـراعاً وعـراكاً
وأرى ذاتيَ شيطـانـاً وأحيـانـاً مـلاكـا
هل أنا شخصان يأبى ذاك مَعْ هذا اشْتراكا
أم تـــراني واهمـــاً فيمـــا أراه ؟
لســـــت أدري!

ولكن كيف يتأتَّى للإنسان أن يروي ظمأه من أرضه القاحلة؟ وأنَّى له أن يصل إلى جواب من عقله وهو المستنجد المستغيث ؟

فالعقل والمنطق يوصله إلى معرفة الله ـ سبحانه ـ، والتفكر والتبصر في آثار قدرة الله، يدله عليه، ومن ثم عليه أن يستلهم الهدى من كتابه العزيز، ويفتح قلبه وعقله لاستقبال العقيدة الدينية والتوجيهات الربانية، وعندئذيعمر القلب بالثقة والاطمئنان، وتمتلىء النفس بالرضى والارتياح، ويتحرر العقل من الحيرة والاضطراب، ويتخلص الكيان من الأرجحة والاهتزاز.

إن الوجود خاضع لنواميس ثابتة وسنن لاتتبدل، والإنسان جزء من هذا الوجود، وإن الله وحده ـ سبحانه ـ خالق هذا الوجود، ومنشىء هذا

الخلق من العدم، ومنشىء هذه النواميس والسنن.

وهذا الإنسان الفاني لم يخلق عبثاً، بل منحه الحكيم الخبير هذه الحياة ليؤدي دوراً محدداً مرسوماً في هذا الكون، وهو ليس بالفرد العاجز إذا استند إلى من هو أكبر من كل القوى، وليس بالذرة التائهة الضعيفة إذا اتصل بالله ـ سبحانه – مالك الملك، واعتصم بحبله، واستمسك بالعقيدة الدينية التي تربطه بقوى الكون الظاهرة والخفية، وتمده بالقدرة على مواجهة أعباء الحياة، وتسكب في نفسه الطمأنينة والثقة والأمل.

وإن الدنيا معبر مؤقت إلى مستقر دائم، يعمل في الحياة وهو يعلم أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأنه محاسب على أعماله دقها وجلها، إلى أن تأتي منيته، فلا يخيفه الموت ولايزعجه ولا يفاجئه، ولايصاب بالهلع والذعر، كما يحدث للماديين والوجوديين، بل يستقبله بالرضى، لأنه يؤمن به ويتوقعه في كل لحظة، فهو نهاية كل حي، ولامفر منه لكل نفس، وهو ليس إلا مرحلة من مراحل حياته التي تبدأ بالحياة الدنيا هذه، ثم ينتقل إلى حياة البرزخ، ثم ينتهي إلى حياة الدار الآخرة، وهي حياة تامة بكل معنوياتها ومادياتها، ولايهوله مصيره إذا أحسن تصرفاته، وخاض امتحانه في المرحلة الأولى العجلى بنجاح.

وبهذا يحصل على قوة نفسية فائقة، ويتخلص من اليأس المرير والحيرة المضنية، وينجو من صراعاته النفسية، ومع الآخرين، ويعف عن الانكباب على الحياة الدنيا، والتكالب على المتاع الزائل، فإن هي إلا لحظات، ويمضي على الطريق إلى دار الخلود.

إن فهم طبيعة الدور الموكول إلى الإنسان في هذه الحياة، والعمل بمقتضاه، يريحه من الاضطراب والحيرة والقلق، ويمده بالرضى والطمأنينة والاستقرار والسعادة، ويسمو به عن السفاسف والدنايا، وينيله منزلة الاستعلاء على غرور الحطام الفاني، ويدفعه إلى مواصلة هذه الرحلة بفرح وثقة وثبات، ويمنحه التكريم الذي يرفع قدره عن مستوى المادة وحياة الحيوان، وإذا تعرض أثناء تأدية هذا الدور إلى متاعب ومصاعب، احتسب

وصبر ليقينه بالبعث، وثقته بالجزاء، وشوقه إلى اللقاء، فهو يقوم بحمل (الأمانة) ليحقق دور (الخليفة في الأرض)، ويؤدي وظيفة (العبادة) التي تشمل اعتناق العقيدة الصحيحة؛ وتأدية الشعائر التعبدية، وممارسة كافة النشاطات الحيوية بأطر مستمدة من منهج الله ـ سبحانه ـ الذي كلفه بأداء هذا الدور، ولم يكلف المادة أو الحيوان، ولذا فإنه يزاول هذه الفعاليات بالطريقة الإنسانية، وليس بالطريقة المادية أو الحيوانية. (وحتى لا نظلم الحيوانات فإن بعضها يعيش حياة متآلفة متآزرة متلازمة، موزعة الأدوار، ومنظمة العلاقة الجنسية) ابتداء بالأكل والشرب واللبس والغسل والجنس، والأعمال اليومية المعاشية، وحتى النشاطات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية والتقنية والدولية.

وبعد التخبط في فهم هذا الدور ،والضياع في متاهات التشتت والاغتراب، والتحرر من ردود الأفعال إزاء الأوضاع المحلية، والانغماس في أوحال المعاصي والموبقات، والانجراف وراء الزيف والمنكرات، والتمزق الذي قلب حياة الناس إلى جحيم لايطاق،والبحث الطويل،والتأمل الواعي، والدراسة المتأنية المنصفة البعيدة عن الأهواء. وبعد الغربة الطويلة بعيداً عن عقيدة التوحيد؛ بدأت أفواج متتابعة من الناس تثوب إلى الله ـ سبحانه ـ، وتعود إلى الايمان الحق، والمنبع الصافي بفرح وشوق. تنهل منه العون على مواجهة أعباء الحياة ولأواء الرحلة،وتسكب في نفوسها الطمأنينة والثقة والأمل،وتجد فيه العلاج الشافي، والحل الواقعي المثالي لمشكلات الحياة.

وأخذت الصحوة الإسلامية تمتد وتشتد في كل مكان؛ على الرغم من الكيد العظيم، والمكر الخبيث، والجهد الهائل الذي يبذله الأعداء للقضاء عليها، وأخذ النور ينسلخ من ظلمات الليل المدلهم، ويتعاظم في أرجاء الارض،على الرغم من تداعي الأمم من كل حدب وصوب ليطفئوا نورالله.

لقد انتبه الغافلون، وصحوا من رقدتهم، وتفكروا في حالهم وواقعهم المعاصر، واكتشفوا أنهم كانوا سادرين في واد عميق، وغارقين في بحر كبير، ومصابين بمرض خطير، ولكنهم لم يحسوا في البداية بمرضهم، فأخلصوا بتوجههم، وسعوا إلى تصفية قلوبهم مما ران عليها من آثام ومعاصٍ

وأدران، وتطهيرها مما غشيها من غبش وزيغ ورواسب، وتنقيتها مما أصابها من سطام وطبع وانطماس، وجاهدوا لتجلية الخير في نفوسهم، وإزاحة الغشاوة عن أبصارهم، وإزالة الوقر من آذانهم، وتضرعوا إلى الله- سبحانه - فجاءهم العون والهدى، وأنقذهم - سبحانه - قبل فوات الأوان.

إن الراحة النفسية وسكينة النفس والأمن النفسي هي منارات عالية لاترتقي إليها إلا القلوب العامرة بالإيمان.

يقول الدكتور(كارل يونج) -وهو من كبار علماء النفس في الولايات المتحدة الأمريكية- في كتابه(الرجل الحديث يبحث عن الروح): «جاءني كثير من المرضى من مختلف أنحاء العالم المتحضر والفقير، وعالجت كثيراً من هؤلاء، فلم أر مشكلة واحدة من تلك المشكلات التي تعترض طريق الرجال الذين هم في منتصف العمر، أي حوالي الخامسة والثلاثين، لاترجع في أصلها إلى افتقارهم للإيمان بالله، وخروجهم عن المبادىء الدينية. ويمكن القول: إن كل واحد من هؤلاء إنما وقع في براثن المرض لأنه افتقد الراحة النفسية والروحية التي يجلبها الدين».

ويقول الدكتور(هيرفلد) كبير الأطباء النفسيين في إنكلترا: « إنني مقتنع بأن الدين عامل من أجدى العوامل وأقواها في إدراك سكينة النفس والثقة والطمأنينةالتي تشتد إليها حاجة كثير من الناس؛ لكي ينعموا بالصحة والقوة

إن أعظم الأركان شأناً هو الإيمان بالحياة نفسها، وأن لها هدفاً ومعنى. وإن إنكار الدين وإنكار المصير، ليس انصرافاً عن الدين فحسب، بل هو إنكار أصل الحياةنفسها، ومالها من أهداف ومعان سامية. فالثقة بالحياة بأن لها قيمة جوهرية يجب أن يسايرها إيمان بأن فوقنا قوة تعيننا على أن نحيا حياة طيبة أنبل وأعظم».

ويؤكد الدكتور (جايلورد جاوزر) -وهو من كبار علماء النفس- هذه الفكرة قائلاً: « إنه ليس أكثر حمقاً، ولا أشد عمى وانطماس بصيرة، من أولئك الذين يزعمون أنه لامكان في العصر الحديث للدين، فالعقيدة هي النجم القطبي الذي يهدي الملاحين في عرض البحر إذا خيم الظلام، والحياة العصرية أشد تلاحماً، وأوسع مدىً، وأحفل بالأخطار والغوامض والمفاجآت،

من بحر الحياة في الزمن الغابر، فالحاجة اليوم إلى العقيدة أشد منها في أي عصر مضى، والنفس الآمنة المطمئنة لايمكن أن تكون كذلك ما لم تستند إلى عقيدة راسخة في قوة أبدية أزلية، ومدد أعلى من ظواهر الحياة والمادة المتغيرة».

وأما (وليم جيمس)- الأستاذ السابق للفلسفة في جامعة هارفارد- فيقول: « إن أعظم دواء شاف للقلق والشك هو الإيمان، وفقده نذير بالعجز عن معاناة الحياة».

ويقول الدكتور(ي. لبيمان) في كتابه (سكينة النفس): « إن سكينة النفس هي الهبة التي يدخرها الله لأصفيائه، فإنه يعطي الكثيرين الذكاء والصحة والمال والشهرة، أما سكينة النفس فإنه يمنحها بقدر...

إن سكينة النفس هي الغاية للحياة الرشيدة، وهي تزدهر بغير عون من المال؛ بل بغير مدد من الصحة، وفي طاقة السكينة تحويل الكوخ إلى قصر، أما الحاجة إليها فتحيل القصر سجناً...».

ويأتي (فوستر دالاس)- وزير خارجية أمريكا سابقاً- ليعطي للمشكلة التي يعانون منها أبعادها الحقيقية، فيقول: «إن الأمر لا يتعلق بالماديات، فلدينا أعظم إنتاج عالمي في الأشياء المادية، إن ما ينقصنا هو إيمان قوي صحيح، فدونه يكون كل ما لدينا قليلاً».

ويوضح الدكتور (ألكسيس كاريل) أثر العقيدة من خلال ممارسته وتجاربه فيقول: « لعل الصلاة هي أعظم طاقة مولدة للنشاط عرفت إلى يومنا هذا، وقد رأيت ، بوصفي طبيباً، كثيراً من المرضى فشلت الأدوية في علاجهم،فلما رفع الطب يده عجزاً وتسليماً، تدخلت الصلاة فأبرأتهم من عللهم».

وأكتفي بهذا القدر من الشهادات لأن هذه الأقوال أكثر من أن تحاط أو تجمع.

إن النفس الإنسانية وحدة متماسكة، كما سنرى في الفصل القادم،وإن العقيدة التي تشمل كل خيوط هذه النفس، وما يصدر عنها من إشعاعات ونشاطات، هي أفضل وأيسر وأنسب من العقيدة التي تهتم بجانب واحد من

جوانب الإنسان ونشاطاته، لأن وحدة العقيدة وشموليتها تحقق شيئاً مركوزاً في فطرة الإنسان، وتجمع طاقاته، وتصون كيانه من التبعثر والتمزق، وتحفظ إمكاناته من التبدد والانمحاق.

إن صفاء العقيدة وتوحدها، يفيض على النفس المؤمنة، فلا تشوبها شائبة، ولا تتبدد أجزاء، ولا تتشتت بالشركاء، ولا تشقى كالتعساء.

وفي أوربا وقع الناس ضحايا للألغاز والتعقيدات والأباطيل والمتناقضات، التي وضعتها الكنيسة ورجالها، والذين يمثلون (الدين) في نظر الناس.

وجعلت الإله الواحد ثلاثة أقانيم، وقامت بتحريف الدين المنزل على عيسى - عليه السلام - وتشويه العقيدة، وأحاطت معتقداتها التي يصعب قبولها، ويظهر تناقضها بالكتمان، وأوحت للناس أن هذه الأسرار - كأسرار التثليث - لا يعلم تأويلها إلا رجالها.

ولنأخذ مثالاً عن حال المثقفين الذين وقعوا في الحيرة، نتيجة هذه المتناقضات الكاتب (دايل كارنجي) مؤلف كتاب (دع القلق وابدأ الحياة) الذي يحدثنا عن تجربته: «وكانت رغبة والدتي أن أكون منصِّراً في بلد أجنبي، ففكرت، ولكني حين ذهبت إلى الجامعة تغير تفكيري بصورة جذرية، فقد درست علم الأحياء والعلوم المختلفة، ودرست الديانات المقارنة، وتعمقت في دراستها، ثم كرست نفسي فترة من الوقت لدراسة التفسيرات الكثيرة للكتاب المقدس، فانتابني بها الشك؛ إذ رأيت آراء متضاربة، وزاد من هذا الشك وجود الأفكار الرجعية التي كان يعظنا بها المنصرون في الريف، وتنازعتني الحيرة في الإلحاد والإيمان، وانتابتني أفكار متناقضة، وكثرت الأسئلة في رأسي حتى خلت نفسي ثائراً متمرداً على الحياة...».

وبعد استطراد وشرح لحالته، يعود فيقول: «.. ثم اتخذت نظرة جديدة إلى الدين... فلم تعد تؤثر عليَّ وتشغلني اختلافات النصارى فيما بينهم وتفرقهم إلى شيع وأحزاب، بقدر ما يهمني ما يقدمه إليَّ الدين من رحمة ونعم».

وكما هو معروف تاريخياً في أوربا قيام الكنيسة بالطغيان الروحي والفكري والسياسي والعلمي. . . ومحاكم التفتيش، والانحلال الخلقي، ودعم الظلم . . . مما دفع بعضهم إلى معاداة (الكنيسة)، وبالتالي (الدين) ككل دون تمييز أو تمحيص أو تبيّن.

وانعكست هذه الخلفية التاريخية على نظرة الكثيرين إلى الدين، وعمموا ما وصلوا إليه من نتائج بخصوص (الدين) هناك على (الإسلام). والذين لم يطلعوا عليه، ظنوا أنه يكبت النوازع الفطرية للإنسان، ويمنع التقدم العلمي والمادي، ويحجر على العقول، ويحوي مثل هذه التناقضات.

إن عقيدة التوحيد تحقق للنفس الإنسانية الصفاء والأمن والطمأنينة والكرامة ووحدة التوجه والانطلاق، وتوحد الطاقات والنشاطات التي تصدر عنها، وتعمرها بالسعادة والهناء، وتغمرها بحلاوة الإيمان ولذة الإحسان، ومن ذاق عرف.